مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 3 السنة: 2019
ص:565 - 578 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أثر السياق التداولي في توجيه الدلالة: الخطاب القصصي القرآني نموذجا

the impact of pragmatic context in directing the semantic in the Qur'anic narrative discourse

د. الحاج براهيمي *

Brahimi Elhadj

جامعة زيان عاشور الجلفة الجزائر

University of Ziane Achour

Brahimi.elhadj@gmail.com

تاريخ الإرسال:2018/12/12	تاريخ القبول: 2019/05/12	تاريخ النشر : 2019/07/12

ملخص البحث

تناولت المقالة أثر السياق في توجيه الدلالة في الخطاب القصصي القرآني، واختارت سورة الكهف نموذجا للتحليل، وذلك على عدة مستويات، منها المستوى الصوتي والمعجمي والتركيبي، ويتجلى المستوى الأخير (التركيبي) في مظاهر عدة: بيان التقديم والتأخير وأثره، بيان الحذف وتقديره، وتحديد مرجع الضمير، فضلا عن مظاهر نحوية وبلاغية أخرى ينبئ عنها التحليل السياقي التداولي، وقد خلص البحث إلى ضرورة استثمار السياق وعدم إغفاله في تفسير القرآن، وتحليل الخطابات من قبل الدارسين، لأنه يشي بحقيقة مقاصد الخطاب الشرعي خاصة، والخطاب بصفة عامة.

الكلمات المفتاح: السياق؛ الدلالة؛ التداولية؛ الخطاب القصصي القرآني.

Summary

The article discussed the contextual impact of directing the significance in the Qur'anic narrative discourse. Sourat Al-Kahf is chosen as model for analysis at several levels, including the level of phonetic, lexicon and syntactic, The last level (syntactic) is manifested in several aspects: the presentation of the delay and its effect, the statement of the deletion and its estimation, and the determination of the reference to the conscience, The research concluded that the context should be exploited and not overlooked in the interpretation of the Qur'an, and the analysis of the speeches by the researchers, because it reflects the truth of the intentions of the Islamic discourse in particular, and the discourse in general.

Key words: context; semantic; pragmatics; Qur'anic narrative discourse.

* الحاج براهيمي. Brahimi.elhadj@gmail.com

تمهيد

لقد كان السياق ولا زال أداة أساسية في استكناه المعاني الثاوية خلف رسم الحروف الجامدة، بل واكتشاف مقاصد المتكلم في استعمال حروف من دون حروف، وكلمات من دون أخرى، وعبارات غريبة أحيانا بدل أخرى ألف المتلقي تلقيها، فينكشف النص في تجل جديد، لتأخذ قراءته منحى لم يكن ليظهر لولا توسل السياق في ذلك.

إن القارئ وهو يقرأ نصا ما، يتلقى حروفه وكلماته ومقولاته في مسار ذهني معين، يستدعي من خلاله المساقات الأولى التي كتب فيها هذا النص، مستحضرا عاملين أساسين في ذلك، أولهما نسق النص، من خلال سوابق الكلمات والجمل ولواحقهما، فلا يقرأ كلمة أو جملة قبل أن يضعها في نسقها الداخلي، فتتجلى له بعض الملامح الأساسية في فهم موقعها ودلالتها، والآخر هو معرفته بالمتكلم، وكلما زادت معرفة القارئ بالمتكلم زاد اقترابه من إدراك ملابسات الخطاب التي أنتج فيها، وبالتالي استدعاء عناصر السياق المقامي الذي يحيط بالمنتوج النصي، وبتضافر العاملين يكون القارئ قد اقترب مسافة كبيرة من إدراك مقصد المتكلم، ثم من فهمه، وأي خلل في العملية السابقة سينتج لنا خللا في التواصل بين المتكلم والمخاطب.

وإذا كان هذا ينطبق على الخطاب البشري، فإننا أحوج إلى أن نفزع إلى السياق في فهم الخطاب القرآني، سواء الداخلي منه أو الخارجي أو قل التداولي، ذلك أن السياق "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[1]، فكان لزاما مع هذا اللجوء إلى السياق ليس اختيارا، بل ضرورة لفهم مقصد الشارع من الخطاب.

إن تحليل الخطابات يحتاج إلى تشابك عدة عوامل تتضافر فيما بينها، عسى أن يخدم بعضها بعضا في استخراج مقاصد المتكلم منه وبالتالي فهم الخطاب فهما سليما، أما الابتعاد عن قصد المتكلم والتشدق بأوهام التحليلات المترامية بعيدا عن قصد المتكلم فإن ذلك هو ليٌّ لمسار النص، وتقويل المتكلم ما لم يقله، وبالتالي الانحراف عن غاية النص وهدفه. ومن هذه العوامل عناصر السياق التي تبدأ بالمتكلم، وتتقاطع في ذلك مع أهم سؤال تطرحه التداولية: من يتكلم؟ لتتدرج

الدراسة عبر مستويات التحليل اللساني من الصوت إلى الدلالة والتداولية، رغم اندماج هذه الأخيرة في كل المستويات، وهو ما يطلق عليها ديكرو التداولية المدمجة[2]، التي لا تجعلنا نعنون عناوين هذه المقالة على وفق هذه المستويات إلا بسبب الاقتضاء المنهجي والأكاديمي.

لقد اخترنا أن ندرس الخطاب القصصي الذي يتميز بميزات خاصة، أهمها اعتماده على السرد، وهو ما يحيل إلى اعتبار المتلقي القارئ، ووفرة الحوار في ثناياه وهو ما يحيل إلى الاهتمام بالمتكلم والمخاطب في الآن ذاته وتبادل الأدوار بينهما، وارتباطه بالخطابات الحافة التي تعبر عن مقاصد القصص الواردة فيه، وبالتالي أخذ مقاصد المتكلم بعدها عاملا أساسيا في فهم استعمالات مكونات المستويات اللسانية داخل النص، وقد اخترنا أن ندرس كل ذلك على وفق أثر السياق في توجيه دلالة الخطاب.

أولا: الإطار النظري: تعريفات ومفاهيم

سنحاول أن نعرض في هذا المهاد النظري بعض التعريفات ونشرح بعض المفاهيم المتعلقة بمقولات هذا المقال، وأهمها: التداولية، والسياق ببعديه الداخلي والخارجي.

1- **التداولية:** وهو المصطلح العربي المقابل للمصطلح الإنجليزي Pragmatics أو الفرنسي Pragmatique، والذي كان الفضل في وضعه للأستاذ طه عبد الرحمان سنة 1970م، وقد حظي بالإجماع والتداول.

وانطلاقا من أن التداولية لم تعرف بتعريف واحد، وأنها اصطلاح مدعاة دائما للالتباس[3]، يقترح الباحث اللساني والتداولي ليفنسون Levinson.S.C في كتابه Pragmatics وجوها متعددة عرفت بها التداولية، أهمها في بحثنا هذا التعريف الذي يربط التداولية بالسياق، والذي مفاده أن التداولية دراسة للعلاقات بين اللغة والسياق، أو هي دراسة لكفاية مستعملي اللغة في ربطهم اللغة بسياقاتها الخاصة[4].

2- السياق:

أ- **المفهوم اللغوي:** لا يمكن أن نتكلم عن المعنى الاصطلاحي لأي لفظ دون المرور على المعنى اللغوي الذي يعد قاعدة الارتكاز والركن الأصيل في تحديد وتوضيح المعنى الاصطلاحي، فكان إذا لابد من بيان المعنى اللغوي وعطف المعنى الاصطلاحي عليه.

جاء في لسان العرب في باب (سوق) ".. وقد انْساقَت وتَساوَقَت الإبلُ تَساوُقاً إذا تتابعت، وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة، وفي حديث أُم معبد فجاء زوجها يَسُوق أَعْنُزاً ما تَساوَقُ أي ما تتابَعُ، والمساوَقة المتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً ... "5

وذهب ابن فارس إلى أن السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا، والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب. ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها"[6]، وقال الزمخشري في أساس البلاغة: " وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده" [7] "وقريب من هذا ما ورد في المعجم الوسيط: ساق الحديث: سرده وسلسله، وساوقه: تابعه وسايره وجاراه، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه" [8]

ومن مجموع النصوص اللغوية المتقدمة نستطيع أن نقول: أن السياق في الحس اللغوي يدل على انتظام متوال في الحركة والكلام لبلوغ مقصد معين.

ب- **المفهوم الاصطلاحي**: يستعمل لفظ السياق في علم اللغة الحديث مقابلا للمصطلح الأنجليزي context الذي يطلق ويراد به المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية، سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار العناصر اللغوية أو غير اللغوية" [9]

ويرى هاليداي M.Halliday أن السياق "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[10]

وتقول بروس أنغام:" السياق يعني واحدا من اثنين: أولا السياق اللغوي، وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، وثانيا السياق غير اللغوي أي الظروف الخارجة عن اللغة التي يرد فيها الكلام".[11] وفي المعاجم الحديثة يعرف السياق بأنه: "بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه" [12]

ويعرفه آخرون بأنه "علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه"[13] ونلاحظ في هذا التعريف الأخير أنه مختص فقط بالسياق اللغوي ويهمل السياق الخارجي أو التداولي.

بيد أن هناك ما يدعى بالتعريف النموذجي كما جاء به كلارك هاربرت حين يسأل:" ما السياق؟ إنه حسب المعجم تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها، وسوف ندعو هذا بالتعريف النموذجي"[14]

ورغم تسميته لهذا التعريف بالنموذجي، إلا أن توسع الدراسات التداولية في تعريف السياق تجاوز تعريف كلارك هاربرت، خاصة وأن التداولية تعد السياق أساسا من أسسها المكينة، ليصبح عبارة عن " مجموعة الظروف التي تحف حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام ... وتسمى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسياق context "[15]

ثانيا: أثر السياق في توجيه الدلالة:

1- المستوى الصوتي:

لا نقصد بهذا المستوى الغوص في خصائص الحروف ومخارجها وصفاتها، وإنما سنقتصر على مثالين يوضحان وظيفة الحروف في حالة إثباتها أو حذفها في الاستعمال اللغوي، وتأثير ذلك في توجيه الدلالة وفقا للسياق.

1- أ- لم "تستطع" و"لم تسطع" الكهف 78 و82

والسؤال المطروح هنا، هو لماذا أثبت الله سبحانه وتعالى التاء في الأولى وحذفها في الثانية؟ وهل للسياق دور في ذلك؟

لم يأبه كثير من المفسرين لهذا الفرق، وجعلوا اللفظين متساويين في المعنى رغم اختلافهما في المبنى، منهم من لم يشر إلى ذلك إطلاقا، ومنهم من أشار إلى تماثلهما، يقول البغوي في تفسيره: " ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا" أي لم تطق عليه صبرا، و"استطاع" و"اسطاع" بمعنى واحد"[16]

وبعض المفسرين أشار إلى حكمة هذا الفرق مثل الشيخ ابن عاشور إذ قال في ذلك:"تَسْطِعْ مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع) . حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء، والمخالفةُ بينه وبين قوله {سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً } للتفنن تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه . وابتدئ بأشهرهما استعمالاً وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأنّ التخفيف أولى به لأنه إذا كرر { تَسْتَطِع } يحصل من تكريره ثقل" [17]

وقد يكون هذا صحيحا، إذ جعل العلة في الثقل، رغم وجود من يخالفه الرأي في ذلك، يقول خالد قاسم بني دومي:"وربما جانب الصواب ابن عاشور فيما ذهب إليه، وبخاصة في عبارته الأخيرة، إذ إن التكرار اللفظي من أبرز الظواهر وأوسعها انتشارا في القرآن الكريم، وإننا نقرأ سورة الرحمان– على سبيل المثال– التي يتكرر فيها "فبأي آلاء ربكما تكذبان" واحدا وثلاثين مرة، ومع

ذلك لا يشعر الواحد منا بأي ثقل أو ضيق أو سآمة، فكيف يحصل مع تكرار "تستطع" ثقل على تباعد الموضعين، حيث وردت الأولى في الآية الثامنة والسبعين، والثانية في الآية الثانية والثمانين"[18]

وأورد البقاعي تفسيرا لهذا الحذف مراعاة من المتكلم لحالة المخاطب (موسى)، فقال:" وأثبت تاء الاستفعال هنا وفيما قبله إعلاماً بأنه ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر، إشارة إلى صعوبة ما حمل موسى من ذلك، لا مطلق القدرة على الصبر...وحذف تاء الاستطاعة هنا لصيرورة ذلك – بعد كشف الغطاء – في حيز ما يحمل فكان منكره غير صابر أصلاً لو كان عنده مكشوفاً من أول الأمر" [19]

واقترب ابن كثير–رحمه الله – من هذا ببيان تناسب الإثبات والحذف مع الحالة النفسية لموسى عليه السلام، فقال: " وقوله: { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: { [مَا لَمْ] تَسْطِعْ } وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلا فقال: { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف"[20]

ويتساوق رأي صلاح الخالدي مع رأي ابن كثير بتناسب الحذف لزوال الثقل النفسي الذي كان موسى عليه السلام يعيشه في خضم حيرته في تأويل الأحداث وتعليلها، إذ قال: "جاء– أي الحذف– لزوال الهم الذي سيطر عليه، والثقل النفسي الذي عاشه، فقد لاحظ السياق زوال الثقل النفسي، فحذفت التاء من الفعل "تستطع" لتشارك التخفيف النفسي عند موسى، بخفة في حروف الفعل" [21]

1–ب– "استطاعوا" و"اسطاعوا" الكهف97.

رأينا في المثال السابق أن الله عز وجل أثبت التاء في الأولى" سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" وحذفها في الثانية " ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" أما هنا فقدم الحذف على الإثبات " فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا" فما هو موجب الحذف والإثبات وقد جاءتا في آية واحدة؟

ذهب جمهور المفسرين إلى تناسب المعنى والمبنى، أي أن الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى، وخالفهم في ذلك البقاعي فقال:" زيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو

الجبل"[22] ولا أدري كيف وصل البقاعي إلى هذه النتيجة، إذ لم يعلل ذلك، ويبدو أنه تأثر بما حكاه هو بعد قوله هذا عن ابن خرداذبه عن سلام الترجمان ما يدل على ما قال، غير أن ظاهر زيادة التاء لا كما ذهب إليه البقاعي، وإنما ما ذهب إليه جمهور المفسرين، يقول ابن كثير:" ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه، قابل كلا بما يناسبه"[23]

ويقول ابن عاشور:" ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى ."[24]

ويرى الخالدي أن حذف التاء يناسب خفة التسلق، من حيث إن تسلق جدار السد العالي الأملس الخالي من النتوءات والمقابض يحتاج إلى خفة ورشاقة ومهارة، فجاء الفعل "اسطاعوا" مسهما في هذه الخفة، متخففا من أحد حروفه، كما يتخفف المتسلق من بعض أحماله، أما إثبات التاء في "استطاعوا" فهو يناسب المعنى الذي تقرره الجملة، وهو مشقة الحفر، من حيث إن نقب الجدار – أو جعل ثقب فيه- يحتاج إلى جهد كبير، ويتحمل الإنسان في ذلك كثيرا من المشقة، كما أنه يأخذ منه وقتا طويلا يمر عليه ثقيلا، فلهذه الأثقال المادية والنفسية، الزمانية والمكانية، التي تقررها الجملة، جاء الفعل "استطاعوا" مسهما فيها، بتثقيل إيقاعه وتركيبه وزيادة حروفه" [25]ولا شك أن هذه لفتة مقامية راقية من الخالدي.

ولا بأس في آخر هذا العنصر أن نناقش من يسأل فيقول:" إذا كان الثقب أصعب من الظهور، فكيف وردت الأحاديث تشير إلى أن يأجوج ومأجوج سينقبون السد، وكان الأولى بهم أن يظهروا عليه مادام النقب أصعب؟

وهذا سؤال جدير بالطرح، نجيب عليه فنقول وبالله التوفيق: إن نقب السد أصعب من ظهوره صحيح، ولكن هذا بالنسبة للفرد الواحد، ولكن بالنسبة إلى قوم كثر، فإن النقب أسهل، إذ سيحتاجون إلى نقبه مرة واحدة، ليمر القوم كلهم من هذا الثقب، أما الظهور فيتوجب على كل واحد منهم فعله، فيكون النقب أصعب من الظهور بالنسبة للفرد الواحد، وهذا مقتضى استعمال "استطاعوا" بإثبات التاء، وأسهل بالنسبة للجماعة، وهذا مقتضى الأحاديث الواردة بالنقب.

2-المستوى المعجمي:

ونقصد بهذا المستوى المفردات المستعملة في الخطاب القصصي القرآني، كيف فسرها العلماء وما هي أرجح الأقوال بناء على السياق، ونناقش أحيانا سبب استعمال القرآن لمفردات خارج سياقها المعجمي المعهود؟ وهل للسياق دور في ذلك؟

اخترنا بعض الأمثلة من النموذج الذي سطر لهذه الدراسة تتمثل فيما يأتي:

2-أ- " وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا"الكهف33 لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى مفردة الظلم هنا؟

تفسيرها الظاهر ولم تنقص منه شيئا، يقول صاحب التحرير والتنوير:" واستعير الظلم للنقص على الطريقة التمثيلية بتشبيه هيئة صاحب الجنتين في إتقان خَبْرِهما وترقب إثمارهما بهيئة من صار له حق في وفرة غلتها، بحيث إذا لم تَأت الجنتان بما هو مترقب منهما أشبَهتا من حَرم ذَا حق حقه فظَلمه، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار"[26]، والملاحظ في نظرة ابن عاشور أنه فسر اختيار لفظة الظلم بناء على حالة صاحب الجنتين، فجاءت هذه المفردة مناسبة لنفسيته في انتظار الغلة والثمر، وهي لفتة مقامية دقيقة.

2-ب- " وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا" الكهف54.

ولم يشر أكثر المفسرين لاختيار كلمة شيء وسببه، وفسره الزمخشري فقال:" أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد، خصومة ومماراة بالباطل" [27]، وفسره ابن عاشور بأنه " اسم مفرد متوغل في العموم، ولذلك صحت إضافة اسم التفضيل إليه، أي أكثر الأشياء"[28]

ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذه المفردة للتعبير عن الإنسان في هذه الحالة؟ "أكثر شيء جدلا" لابد أنه السياق الذي جاءت فيه هذه الآية.

تتحدث الآية التي قبلها عن المجرمين "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا" الكهف53، والآية التي بعدها " وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا" الكهف55، إنهما تنقلان صفة ذميمة في هذا الإنسان المتكبر على الحق، هذا الإنسان الذي يجادل ويجادل حتى يأتيه العذاب في الدنيا، أو يواجه النار يوم القيامة، فـ"يعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه (شيء) وأنه أكثر شيء جدلا، ذلك كي يطامن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلا" [29]

إن هذه المفردة المختارة "شيء" علاج حقيقي لحالة الكبر التي يعيشها من ينكر الحق ويكثر الجدال فيه، وربط الكبر بعدم قبول الحق جاء في الحديث الذي رواه مسلم: "الكبر: بطر الحق وغمط الناس"

3-المستوى التركيبي:

3-1- التقديم والتأخير:

3-1-أ- تقديم الحلي على الثياب:

وذلك في الآية: "أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا" الكهف31.

فلماذا قدم الله سبحانه وتعالى الحلي على اللباس هنا، وأخرها في سورة الإنسان فقال جل علاه:" عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا" الإنسان21.

وهنا يأتي دور سياق الآية، يقول ابن عاشور:" وقدم ذكر الحلي على اللباس هنا لأن ذلك وقَع صفة للجنات ابتداء، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنات، فقدم ذكر الحلي وأخر اللباس لأن اللباس أشد اتصالاً بأصحاب الجنة لا بمظاهر الجنة، وعكس ذلك في سورة الإنسان في قوله: { عاليهم ثياب سندس } لأن الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنة" [30]

أي أن القرآن يؤخر ويقدم حسب موضوع الخطاب الذي هو عنصر من عناصر السياق.

3-1-ب- تقديم المال على البنين:

وذلك في الآية "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا" الكهف46.

وقبل الحديث عن سر هذا التقديم، لابد من إشارة مقامية مهمة هنا، وذلك في حكم ورود هذه الآية وحديثها عن المال والبنون، يقول ابن عاشور:" والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب، قال طرفة

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم *** ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي *** بنون كرام سادة لمسوّد" [31]

فالقرآن الكريم وظف حالة اجتماعية متعاهدة عند العرب، فخاطبهم على وفق طبائعهم وعاداتهم، وهذا أهم عنصر من عناصر نجاح الخطاب، ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه الآية جاءت بعد قصة صاحب الجنتين الذي تكبر "فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا" الكهف34.

نعود إلى التقديم والتأخير، ولن نبتعد كثيرا عن هذه اللمحة المقامية، "وتقديم المال على البنين في الذكر لأنه أسبق خطوراً لأذهان الناس، لأنه يرغَب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ولذلك أيضاً قدم في بيت طرفة المذكور آنفاً" [32]

والملاحظ هنا، أنه إذا كانت اللمحة المقامية في أصل ذكر المال والبنون متعلقة بالعرب، فإن خطور ذكر المال أسبق في الأذهان على البنين متعلق ببني البشر كلهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خطور البنين في الذهن متعلق فقط بالكبير المتزوج الذي لم يكتف بالأولاد أو الذي فقد الولد أصلا، أما المال فهو مطلب جميع الناس، فقدم ذلك.

3-1-ج- تقديم الباقيات على الصالحات:

وذلك في الآية: "...وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا" الكهف46.

وكان مقتضى الظاهر أن يقدم الصالحات، لدلالتها على فعل الخير، أما الباقيات فتبقى صفة لها عند ذلك، "ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدم (الباقيات) للتنبيه على أن ما ذكر قبله إنما كان مفصولاً لأنه ليس بباقٍ، وهو المال والبنون... فكان قوله: {فأصبح هشيماً تذروه الرياح} [الكهف: 45] مفيداً للزوال بطريقة التمثيل وهو من دلالة التضمن، وكان قوله: والباقيات } مفيداً زوال غيرها بطريقة الالتزام، فحصل دلالتان غير مطابقتين وهما أوقع في صناعة البلاغة، وحصل بثانيتهما تأكيد لمفاد الأولى فجاء كلاماً مؤكداً موجزاً" [33]

ويظهر هنا جليا تتالي الآيات في سياق واحد لتخدم بعضها بعضا.

3-2- الحذف:

ولهذه الظاهرة أسرار ومقتضيات تداولية، ولها صور عدة:

3-2- أ- حذف المسند إليه:

وحذف المبتدأ له شروط وأسباب، وأهم ما يفسر به حذف المبتدأ القرائن، ولا تعرف القرائن إلا بالسياق، ومن ذلك في سورة الكهف " وقل الحق من ربكم..." الكهف26،"الحق خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام، أي هذا الحق"[34]

ويمكن أن يكون للحذف هنا علة مقامية كذلك، وهي أن مشركي قريش الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون أنه الحق، فلما حذف المسند إليه هنا أثبت علمهم به، وقرينة ذلك، ما جاء بعدها، "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" وفعل المشيئة يأتي بعد العلم بالشيء، وأما الجاهل به فقد يكفر لجهله لا لمشيئته.

3-3- الإحالة:

تشكل الإحالة عنصرا هاما في فهم الخطاب، والخطأ في تفسير الإحالة يؤدي حتما إلى الخطأ في قراءة الرسالة المتضمنة في الخطاب، وللسياق دور كبير في توجيه الإحالة للضمير، من ذلك ما جاء في سورة الكهف في الأمثلة التالية:

3-3-أ- "...وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا" الكهف22.

ذكر كثير من المفسرين أن الضمير في "منهم" عائد إلى أهل الكتاب[35]، غير أن لابن عاشور رأي آخر في الإحالة يخالف فيه جمهور المفسرين، يعتمد فيه على سياق القرآن المكي وخصائصه، فيقول: " ولا يستقيم جعل ضمير منهم عائدا إلى أهل الكتاب، لأن هذه الآيات مكية باتفاق الرواة والمفسرين"[36]

ومن خصائص سياق القرآن المكي مخاطبة المشركين لا أهل الكتاب، والضمير في منهم في رأي ابن عاشور " عائد إلى ما عاد إليه ضمير "سيقولون ثلاثة"، وهم أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف" [37]

3-3-ب- "...فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا..." الكهف80-81

ذهب أكثر المفسرين إلى أن ضميري الجماعة في خشينا وأردنا عائد إلى الله تعالى بالأصالة، وإلى الخضر بتوكيل من الله [38]، وخالفهم ابن عاشور استنادا إلى السياق المقامي الذي كان فيه الخضر "يقول ابن عاشور:" وضميرا الجماعة في قوله {فَخَشِينَا } وقوله {فَأَرَدْنَا } عائدان إلى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل . وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم لأن المقام مقام الإعلام بأنّ الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال: { فَخَشِينَا فَأَرَدْنَا }، ولم يقل مثله عندما قال { فَأَرَدتُ أنْ أعِيبَها } لأنّ سبب الإعابة إدراكه لمن له علم بحال تلك الأصقاع" [39]

ونجد الرأي نفسه عند د.طه عبد الرحمان في كتابه اللسان والميزان عن إفادة نون الجماعة حسب مقامها إلى التواضع لا إلى التعاظم، فيقول:"إذا نحن استعملنا ضمير الجمع بدل ضمير

المفرد في كتابنا، فلأن هذا الاستعمال تقليد عربي أصيل في صيغة التكلم من صيغ الكلام" ثم لأنه هو الاستعمال المتعارف عليه في المقال العلمي والتأليف الأكاديمي، فضلا عن أنه يفيد معنى "المشاركة" و"القرب"، إذ يجعل المتكلم ناطقا باسمه وباسم غيره، ولا غير أقرب إليه من المخاطب، حتى كأن هذا المخاطب عالم بما يخبره به المتكلم ومشارك له فيه، فيكون ضمير الجمع من هذه الجهة، أبلغ في الدلالة على التأدب والتواضع من صيغة المفرد، ولا دلالة له إطلاقا على تعظيم الذات، ولا على الإعجاب بالنفس" [40]

الخلاصة

من خلال دراسة فاعلية السياق في الخطاب القصصي القرآني، يمكننا الخلوص إلى النتائج التالية:

-ارتباط السياق الداخلي للخطاب بالسياق الخارجي أو التداولي، ذلك أن النسق مفتاح للسياق، والقول بالسياق التداولي لا ينفي استثمار مقولات السياق الداخلي.

-تشابك مقولات السياق بمقولات التداولية، هذه الأخيرة التي تطرح أول سؤال في تحليلاتها: من يتكلم؟ ,إلى من يتكلم؟ وكذلك السياق، فإن من أهم عناصره المتكلم والمخاطب، ولا يمكن فهم الخطاب أو تحليله إلا بعد أخذ هذين العنصرين بعين الاعتبار.

- يمكننا تحليل الخطاب على وفق السياق التداولي عبر مستويات التحليل اللساني المعروفة، إذ ينبئ كل مستوى من المستويات عن حكم تعرف باستحضار آليات السياق التداولية من اهتمام بالمتكلم أو المخاطب أو الخطاب ذاته، ويحكم كل ذلك ملابسات الخطاب التي تدور في فلكها هذه المقولات.

- للسياق أثر واضح في ترجيح أقوال المفسرين، وفي توجيه الدلالة، وذلك إن على المستوى الصوتي والمعجمي والتركيبي، ويتجلى المستوى الأخير (التركيبي) في مظاهر عدة: بيان التقديم والتأخير وأثره، بيان الحذف وتقديره، وتحديد مرجع الضمير، فضلا عن مظاهر نحوية وبلاغية أخرى ينبئ عنها التحليل السياقي التداولي، بل إن أي مفسر أو محلل للخطاب لا يمكن أن يستغني عن السياق في استكناه المقاصد الحقيقية الثاوية خلف الخطاب الشرعي.

هوامش:

1 خلود العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2008، ص51.

2 جاك موشلار وآن روبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف عز الدين المدوب، المركز الوطني للترجمة، تونس، الطبعة الثانية، 2010، ص83.

3 دومينيك مانقينو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص100.

4 Stephen C.Levinson, Pragmatics, Cambridge university press, , Ninteenth printing, 2008, P9.

5 ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوق"

6 ابن فارس أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت لبنان، ط2، 1998 م، ص498

7 الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط1، 1998، 484/1

8 خلود العموش، الخطاب القرآني، ص25.

9 نفس المرجع، ص51

10 نفس المرجع ونفس الصفحة.

11 نفس المرجع ص51.

12 نفس المرجع، ص25.

13 نفس المرجع، ص25.

14 الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص40.

15 نفس المرجع ص41.

16 البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد النمر وغيره، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997، ط4، 197/5.

17 ابن عاشور،محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، 15/16.

18 خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2006، ص205-206.

19 البقاعي، برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002، 496/4-498

20 ابن كثير، الحافظ عماد الدين أب الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت لبنان، 417/4.

21 خالد قاسم، دلالات الظاهرة الصوتية، ص206.

22 البقاعي، نظم الدرر، ص505

23 تفسير ابن كثير، ص425.

24 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 38/16.

25 خالد قاسم، دلالات الظاهرة الصوتية، ص208.

26 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 426/15.

27 الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت لبنان، 489/4.

28 التحرير والتنوير، 347/15.

29 سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1978، 2275/4.

30 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 314/15.

31 نفس المرجع، 332/15.

32 نفس المرجع، 333/15.

33 نفس المرجع ونفس الصفحة.

34 نفس المرجع، 307/15.

35 انظر:

- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، 2000، 643/17
- البغوي، معالم التنزيل،تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الرياض السعودية، ط4، 1997، 162/5.
- السعدي، عبد الرحمان بن ناصر، تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمان بن معلاف اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000، 473/1.

36 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 295/15.

37 نفس المرجع، 294/15.

38 الطبري 85/18، الكشاف 495/4-496

39 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 13/16.

40 طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ط1، ص13.